د. مردخاى كيدار
محلل سياسي ومحاضر في قسم الدراسات العربية في جامعة بار-إيلان الإسرائيلية.

رسالة مفتوحة الى الأمة العربية
عن
النظرة الإسرائيلية لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين

بعد ان تبين لكل ذي عقل ان مشكلة اللاجئين هي اصعب عثرة في اي طريق للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين، قررتُ ان اتوجه الى كل من يهمه الأمر في كل مكان بهذه الرسالة المبنية على إلمامي بحقيقة ما يدور في الذهن الجماعي اليهودي في إسرائيل كوني يهوديا صهيونيا ولد في إسرائيل قبل ٥٥ عاما. وهذه الرسالة نابعة من رغبتي الصادقة في احلال السلام بين إسرائيل والفلسطينيين والأمة العربية بعد ان كنت نشيطا في حركات السلام الإسرائيلية خلال التسعينيات.

لقد تصاعدت في الاونة الاخيرة حدة الجدل الاعلامي والشعبي حول قضية اللاجئين وحق عودتهم الي بيوتهم داخل اراضي إسرائيل ١٩٤٨. وفي الواقع، كلما اقتربت المفاوضات بين إسرائيل والفلسطينيين من نقطة الحسم هناك من يثير موضوع اللاجئين علما منه ان مجرد طرحه على طاولة المفاوضات سوف يعرقلها ويوقفها ويعيدها الى المربع الاول لان الإسرائيليين يرفضون حتى التعرض لموضوع اللاجئين. لماذا؟ لماذا ترفض اغلبية المجتمع الإسرائيلي اليهودي الساحقة حتى الاعتراف بمسؤولية إسرائيل عن مشكلة اللاجئين؟ لماذا لم ولن يشترك اي من دعاة السلام الإسرائيليين في أي فعالية هدفها تحقيق ما يسمى بحق العودة حسب التفسير الفلسطيني لهذا الحق؟ ما هي العلاقة بين استعداد يوسي بيلين للقبول بعودة بعضهم إلى إسرائيل وإقصائه إلي سلة المهملات السياسية الإسرائيلية وهو اليوم وربما إلى الأبد أقصى ما يمكن من مواقع اتخاذ القرار في إسرائيل؟

هذه السطور موجهة إلى جميع الناطقين بالضاد رغبة مني في تسليط الضوء على أهم نقاط طريقة التفكير الإسرائيلي الجماعي فيما يخص هذه المسألة:

١. مصدر قضية اللاجئين في المنظور الإسرائيلي هو غزو جيوش سبع دول عربية الى إسرائيل يوما واحدا فقط بعد اعلان استقلالها، والحرب الضروس التي اعلنتها تلك الدول ضد «الكيان الصهيوني» الوليد. وهناك العديد من الشهادات والأدلة عن النداءات التي أذيعت من محطات الراديو العربية والمنشورات التي تم توزيعها في حيفا والتي نادت الجماهير العربية بمغادرة فلسطين لمدة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع حتى تنتهي تلك الجيوش العربية الجرارة الجبارة من القضاء على اليهود في فلسطين وبعدها سيرجع الفلسطينيون الى ارضهم منتصرين غانمين. فحسب الرؤية الإسرائيلية مَن اعلن حربا وغزا دولة ثم انهزم في حربه هذه عليه ان يتحمل نتائج أخطائه ويمنح المأوى لمن دعاه لمغادرة بيته او هرب الى أراضيه جراء حربه الخاسرة ضد دولة آمنة لم تعتد عليه. ولهذا فان مسؤولية خلق مشكلة اللاجئين تقع على عاتق الدول العربية التي غزت إسرائيل فعليها ان تحل هذه المشكلة على ما منحها الله تعلى من الأراضي الرحبة والمساحات الواسعة.

٢. هناك إحساس عميق في نفوس الإسرائيليين أن هؤلاء الذين هربوا من إسرائيل عام ٤٨ فعلوا ذلك خشية منهم من أن تفعل إسرائيل بهم ما كانوا هم سيفعلونه باليهود لو كانت نتائج الحرب عكس ما كانت. او بتعبير آخر - حسب العادات والتقاليد السائدة في المحيط العربي الجانب المهزوم يتعرض للقتل والمجازر كما نشاهد في دارفور وكان الكثير من سكان فلسطين العرب يخشون من ان يتصرف اليهود بهم حسب الأسلوب المتبع بين العرب، وبسبب هذه الخشية النابعة من عقليتهم الجماعية ومن العادات والتقاليد الخاصة بهم هربوا الى المأوى في الدول المجاورة. فهل يُتوقع ان تتحمل إسرائيل مسؤولية العادات والتقاليد العربية؟

٣. بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ كانت أروبا مغطاة بما لا يقل عن خمسين مليون لاجئ من كافة الامم الأوربية، ولكن بعد مرور ست سنوات لم يبق في أروبا ولو لاجئ واحد لم تحل قضيته - إما بالعودة الى

بيتة أو بالتوطين في المكان الذي لجأ اليه او بإعادة توطينه في مكان اخر وهذه هي الطريقة الحضارية التي يجب ان يتعامل بها الانسان مع أخيه الذي شرد من بيته. أما الدول العربية فأبقت اللاجئين الفلسطينيين في مخيمات أكثر من ٦٠ سنة، بلا حقوق وبلا خدمات وبلا كرامة وخاصة في لبنان حيث ما زال القانون اللبناني يحرم اللاجئ الفلسطيني من حق ممارسة ما لا يقل عن ٧٣ مهنة بغرض منعه من الانخراط في الاقتصاد اللبناني ولتحريمه من كسب قوت بيته بصورة مشرفة ولتمكين المتخمين اللبنانيين من استغلاله ماديا وابتزازه معنويا حتى يأتي اليوم لقذفه على إسرائيل. فهل تعتبر هذه المعاملة معاملة بشر؟ لماذا لم يستوعب العرب أشقاءهم العرب؟ وحينما يقارن اليهودي الإسرائيلي مجتمعه الذي استوعب ملايين من اليهود الذين هاجروا او لجؤوا الى إسرائيل منذ تأسيسها بالمجتمعات العربية التي تأبى ان تستوعب الإخوة اللاجئين العرب الفلسطينيين فهو يتساءل: أين الخلل في العقلية العربية؟ وهل هذه المعاملة نابعة من تعاليم الإسلام السمحة أو من العادات والتقاليد البدوية التي ما زالت تتحكم بطريقة التفكير العربية؟ وهل نحن الإسرائيليون علينا أن نتحمل عواقب النفسية العربية المشوهة التي ما زالت أسيرة منطق «انا وأخي على ابن عمي» ولا تسمح للعربي باستيعاب أخيه العربي الفلسطيني، وهو مسلم مثله - أخوه في الله - في غالبية الأحوال؟ أفليست المخيمات الجديدة الذي تم انشاؤها مؤخرا للفلسطينيين الساكنين في العراق دليلا على أن هذه العقلية المشوهة ما زالت تتحكم بالسلوك العربي حيال الناطقين بالضاد؟

٤. اليهودي الإسرائيلي يتساءل: أليست معاناة اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية طيلة الستين السنة الماضية جزءً لا يتجزأ من الأسلوب العربي المشهور لاحترام حقوق الانسان المتمثل بالمقابر الجماعية وزنازين التعذيب وقطع الرقاب واختفاء المعارضين وكم الأفواه وهتك أعراض الرجال وتدنيس كرامة النساء وغيرها من أساليب القمع الجماعي والاضطهاد الفردي؟ فقبل ان يوجهوا الى إسرائيل المطالبة باحترام حقوق اللاجئين فعلى الحكام العرب ان يسجلوا أنفسهم للدورة الأولى للمبتدئين في مدرسة حقوق الانسان التابعة للحضارة المعاصرة، لأن الإسرائيلي يعلم يقينًا ان الحكام العرب كلما يتفوهون بحقوق اللاجئين ليست نيتهم إلا ابتزاز العالم، وجميع شعاراتهم عن القتال حتى النصر واستعادة حقوق اللاجئين ليست إلا لتبرير أساليب قمع شعوبهم في خدمة مصالحهم الشخصية. وقد نشر مؤخرا أن الدول العربية المضيفة للاجئين تتقاضى كل سنة مئات الملايينمن الدولارات من الأمم المتحدة، ف"وين الملايين"؟

٥. لا يختلف اثنان من اليهود في إسرائيل أن عودة جماعية للاجئين إلى داخل إسرائيل ستقضي على الهوية اليهودية للدولة اليهودية الوحيدة في العالم وستكون بمثابة انتحار جماعي للمجتمع اليهودي في إسرائيل. وليس من العدل المطالبة من المجتمع الإسرائيلي اليهودي أن يلقي بنفسه الى التهلكة بغرض حل مشكلة يمكن حلها بتعويضات عادلة دون ان تشوه الهوية اليهودية لإسرائيل.

٦. عودة جماهير اللاجئين الى ديارهم داخل إسرائيل ١٩٤٨ هو تدوير عجلة التاريخ الى الوراء مثلها مثل عودة الأسرة الهاشمية الى الحكم في الحجاز او في بغداد. القصد وراء عودة اللاجئين هو اعادة فلسطين بكاملها الى أيدي العرب بمعنى إزالة دولة إسرائيل اليهودية من خارطة الشرق الأوسط بعد أكثر من نصف قرن منذ تأسيسها وبعد ان اثبتت الحروب متانة كيانها. فهل يعقل ان يوافق أي من اليهود على ازالة دولتهم بواسطة ادارة عجلة التاريخ الى الوراء؟ هل حدث في التاريخ ان تخلت دولة عن كيانها بغرض إشباع رغبة جمهور يسكن خارجها أكثر من خمسين عاما ومعظمه لم يولد فيها؟

٧. إن الكثير من الذين لجؤوا عام ٤٨ من إسرائيل كان أصلهم من الدول العربية القريبة والبعيدة الذين انتقلوا إلى فلسطين خلال العشرينيات والثلاثينيات وحتى الاربعينيات من القرن العشرين بحثا عن العمل في المستوطنات اليهودية التي تم إنشاؤها في تلك الفترة. فإلى اين يحق لعائلة اسمها «المصري» أو «الطرابلسي» أو «الحوراني» أو «الصوراني» أو «العراقي» أو «الصيداوي» أن تعود؟ وإلى اين يستحق العودة هؤلاء «الفلسطينيون» الظاهر عليهم وهم لا ينفون انهم انتقلوا إلى فلسطين قبيل ١٩٤٨ من السودان او من أرمنيا؟

٨. ولو افترضنا على سبيل المثال عودة ابناء عائلة لاجئين معينة من مخيم الراشدية في لبنان الى ترشيحا (قرية عربية داخل إسرائيل) وهم يستحقون طبعا ان يتقاسموا بيت جدهم مع أقاربهم الذين ورثوه وقطنوه طيلة الستين

السنة الماضية. فهل يمكن تصور ماذا سيحدث بين الأقارب ورثة الجد في هذه الحالة؟ هل تكفي مقبرة ترشيحا لدفن نتائج هذا اللقاء العائلي «الحميم»؟

٩. ولو افترضنا موافقة إسرائيلية على عودة جزء من اللاجئين مقابل إغلاق ملف اللاجئين بصورة نهائية (وهذا ما اقترحه بيلين في محادثات طابا عام ٢٠٠٠) فهل هناك شخص فلسطيني واحد يجرؤ على انتقاء اللذين يحققون العودة فعلا ويقرر من سيبقي في مخيمات الشتات؟ ماذا سيكون مصير العلاقة بين رأس هذا الشخص وكتفيه؟

١٠. الإسرائيلي العادي يتساءل: هل هناك حق عودة لشعب لم يأت ذكره في اي كتاب طُبع قبل سنة ١٩١٠ أي لم يُعرف قبل أقل من مائة سنة؟ واذا كان هناك اليوم شعب فلسطيني فهو - مثله مثل الشعب الأردني والسوري - خليق التطورات الديمغرافية والسكانية والثقافية والسياسية والدولية التي مرت فيها منطقة الشرق الاوسط برمتها خلال القرن العشرين، بينما ورد ذكر اليهود وعلاقتهم بأرض إسرائيل منذ أكثر من ألفي سنة في العديد من الكتب القديمة اليونانية والرومانية والبيزنطية والفارسية، وفي مخطوطات على الجدران في بابل ومصر القديمة، وحتى في كتاب الله تعالى، من هم اللذين قال موسى عليه السلام لهم «أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم»؟ هل قال ذلك لليهود الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم مئات المرات ام للفلسطينيين الذين لم يعثر لهم على ذكر ولو مرة واحدة في كتاب الله تبارك وتعالى؟

١١. الحالة السائدة في العالم اليوم هي انه ليست هناك دول تريد استيعاب اليهود الإسرائيليين حتى ولو أبدوا الرغبة في الهجرة الجماعية اليها. فهل يُتوقع من اليهود ان ينضموا الى أسماك البحر أو يبحثوا عن مكانا آخر لهم على القمر أو على المريخ؟

١٢. هناك العديد من المواطنين اليهود في إسرائيل الذين أتوا اليها من الدول العربية مثل العراق ومصر والمغرب وليبيا فالإسرائيلي ينظر إلى ما حدث مع هؤلاء اليهود بمثابة أنه استبدال السكان مثلما حدث في كثير من الدول بعد الحرب العالمية الثانية. وكما ان الدولة اليهودية استوعبت اللاجئين اليهود فعلى الدول العربية ان تستوعب بالمقابل اللاجئين العرب. أضف الى ذلك ان تلك الدول العربية قد صادرت معظم ممتلكات اليهود بعد ان حرمت عليهم إخراجها أو بيعها وتمت مصادرة الأموال والعقارات من هؤلاء اليهود بذريعة انها ستستخدم لصالح اللاجئين الفلسطينيين. فأين هذه الأموال والممتلكات؟ ولماذا لم تستخدم في استيعاب اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية؟

١٣. كلما يتكلم اللاجئون الفلسطينيون عن حقهم التاريخي في أرض إسرائيل يتزايد عدد الإسرائيليين الذين يؤيدون عودة جميع اللاجئين العرب بما فيهم الفلسطينيين الى المكان الأصلي الذي خرجوا منه في القرن السابع للميلاد ألا وهو أرض الحجاز فهل هناك من ينكر ان العرب فتحوا البلدان الأخرى قادمين من شبه جزيرة العرب في تلك الحقبة التاريخية؟ هل بدأ التاريخ في ١٩٤٨؟ فإلى اين يحق لهم تاريخيًا ان يعودوا؟ ألا تحق لهم العودة الى المساحات الشاسعة لجزيرة العرب المشبعة بالكميات الهائلة للنفط التابع تاريخيا للفلسطينيين كونهم عربا كما يتبع للعرب الآخرين امثال آل سعود؟

واذا اخذتم، أيها القراء الكرام، هذه النقاط مجتمعة لفهمتم المنطق الذي يقوم عليه الرفض الإسرائيلي القاطع للاعتراف بمسؤولية خلق مشكلة اللاجئين ومن ثم انعدام نية إسرائيل لحلها على اراضيها. فالسؤال الموجه منذ ستين عاما إلى اللاجئين وإلى الجمهور الفلسطيني وإلى الشعوب العربية كافة هو: ما هو المصير الذي تُعِدونه للجيل الناشئ للاجئين؟ هل ترسمون لهم مستقبلا ملونا بالمعاناة والمشقة والحلم عن بيت زال الى ما لا رجعة؟ أم تخططون لهم الجهاد إلى يوم الدين؟ ألم يحن الوقت للكف عن النبش في قبور الماضي وللبدء في بناء المستقبل علي اسس من الواقعية والعقلانية؟

هناك في إسرائيل الكثير من دعاة السلام مثلي ونحن كنا الذين دفعوا عجلة السلام طيلة سنوات أوسلو رغبة منا في تقسيم البلاد مع الفلسطينيين وإقامة دولة فلسطينية لتكون تجسيدا لتطلعاتهم الجماعية القومية والوطنية. ولكن ليس هناك داعية سلام واحدٌ في إسرائيل يوافق على التضحية بدولة إسرائيل وبكونها دولة الشعب اليهودي على مذبح تحقيق آمال اللاجئين مهما كانت مبرراتها. اليهودي الإسرائيلي علي أتم القناعة بأن ليس شيء أعدل وأصدق من دولة يهودية تكون

لليهودي الذي طال اضطهاده في مشارق الأرض ومغاربها مأوًى وملجأ على أرض أجداده وآبائه وان الهدف الحقيقي وراء المطالبة بعودة اللاجئين الفلسطينيين هو الرغبة في إزالة هذا المأوى اليهودي الوحيد. أليهودي الإسرائيلي يرغب في العيش في دولة خاصة به وحين يُتهم بالعنصرية لمجرد هذه الرغبة فهو يتساءل: هل "مصر للمصريين" و"العراق للعراقيين" و"سوريا للسوريين" أقل عنصريةً من "إسرائيل للإسرائيليين"؟

وبما ان إسرائيل هي دولة ديمقراطية فلا تتمكن أية حكومة من أن تفرض على الشعب الإسرائيلي ما لا يرغب فيه لأن هذا الشعب مقتنع تماما بالنقاط الواردة بعاليه. فحتى لو اقتنع هذا السياسي او آخر حتى بإعادة عدد قليل من اللاجئين فلا بد من ان يكون مصيره السياسي في اعماق سلة المهملات السياسية الى جانب يوسي بيلين لأن الشعب الإسرائيلي يعلم جيدا أن إعادة اللاجئ الواحد ستؤدي الى تنفيخ الأحلام عند الآخرين وستكون إعادته لا محالة دعوة للضغوط وبداية الأعمال التخريبية التي تهدف إلى إعادة المزيد منهم حتى آخرهم. ولهذا فإن الجمهور اليهودي يشكل صفًا واحدًا وسورًا متراصًا ضد أي كلام عن تنفيذ حق العودة حتى في ما يخص لاجئ واحد.

فالخيار امام اللاجئين خاصة والجماهير الفلسطينية عامة هو بين المضي بلا أمل في طريق مسدود لا يؤدي إلا الى المزيد من الويلات والخراب والمعاناة والموت والثكل واليتم والدموع مثل ما شبعناه في كلا الطرفين طيلة السنوات الستين الاخيرة، أو القبول بالأمر الواقع مثل ما حدث في بعض الدول العربية والتطلع الى المستقبل بأعين مفتوحة وبعقول واعية بهدف إقامة دولة فلسطينية مستقلة ومبنية على اساس من الواقع المتضمن جارة عبرية تحرص أشد الحرص على هويتها وشخصيتها وبنيتها الديمغرافية ذات الأكثرية اليهودية.

ليس عند الإسرائيليين أدنى شك في أن كل من يتكلم عن حق العودة الى داخل إسرائيل ليس إلا بائعا للأحلام العذبة لجمهور من ذوي النفوس الساذجة الذين ينجرون وراءه الى مغارة مسدودة مظلمة من الأوهام والمخيلات التي لا أساس لها في الواقع أو في المستقبل وهي تشابه الأحلام عن وحدة الأمة العربية وإقامة دولة الخلافة الاسلامية أو تسليط الإسلام على دار الحرب.

وأنا واثق بانه بمجرد إعلان الفلسطينيين تنازلهم عن العودة الى ديارهم داخل إسرائيل وقبولهم ببناء مستقبلهم في دولة فلسطين العتيدة أو في الدول التي منحتهم المأوى منذ ١٩٤٨ ستسقط شعبية اليمين الإسرائيلي ويعود اليسار إلى مقاليد الحكم في إسرائيل شريطة أن تتخذ خطوات عملية على الأرض تبرهن للقاصي والداني، للعربي ولليهودي، ان مستقبل اللاجئين هو بين إخوانهم العرب، إما في الدولة الفلسطينية أو في دول الجوار.

هل هذا حلم؟ ربما، ولكنه الواقع على الأرض منذ ٦٠ عاما، وأنا متأكد من أنه سوف لن يتغير في المستقبل القريب أو البعيد، طالما كان اليهود أولي الأمر في إسرائيل. فإذا كان رسم المفتاح المتبع في رسومات الكاريكاتير الفلسطينية وفي أيدي الأطفال في المظاهرات تعبيرا لذكرى ولأمل فليس عند اي إسرائيلي شيء ضده ولكن اذا كان هذا الرسم تعبيرا لهدف واقعي يحول دون التقدم على طريق السلام ما لم يتم تطبيقه فعلا على الأرض فليس هناك - وللأسف الشديد - أي أساس لأية خطوة جدية نحو حل المشاكل بين إسرائيل والشعب الفلسطيني.

أللاجئون الفلسطينيون يعلمون جيدا أن الدول العربية تبنت الرؤية الواقعية وتنازلت فعلا عن المطالبة بعودتهم، وإن كان هناك من ينادي بعودتهم إلى دياركم فليس هذا الا ضريبة كلام منه لتغطية حقيقة نواياه التي لا علاقة لها بمشكلة اللاجئين. لقد عبرت عن هذه الحقيقة المرة رسامة الكاريكاتير الفلسطينية المشهورة أمية جحا في جريدة القدس في ١٠ سبتمبر ٢٠٠١ عندما رسمت الولد الفلسطيني يسأل جده اللاجئ: «يا جدي ليش لليوم عايشين لاجئين؟» فأجابه الجد أبو عائد: «ها كيف بدها تعيش الانظمة العربية يا بني؟» وإذا كان هذا الوضع عند العرب فما هو الذي يتوقعونه من الإسرائيليين؟ أن يكونوا متفهمين ومتضامنين مع اللاجئين أكثر من أشقائهم العرب؟

هناك الكثير ممن يتكلمون عن الجهاد حتى يوم الدين بهدف العودة وخاصة في رأس منظمتي حماس والجهاد الإسلامي الفلسطيني، وحتى السيد زكريا الأغا صاح في احدى المظاهرات في بداية ٢٠٠١: "إنها لثورة حتى النصر والعودة" فالسؤال الموجه اليه والى جميع القادة الفلسطينيين على اختلاف فئاتهم وباقي السادة الذين يرسلون ابناء غيرهم الى الموت هدرًا، ما هو المستقبل الواقعي والحقيقي الذي ترسمونه لأطفال شعبكم؟ هل هذا المستقبل هو شهادة الطب أو

الهندسة أو الفيزياء أو الرياضيات أو غيرها من شهادات علوم الحضارة أم هو الشهادة في سبيل حلم لن يتحقق إلى يوم الدين؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.